

التعليم الأولي في الجزائر خلال الفترة العثمانية(1830-1520)

المرتكزات والمؤسسات

Primary Education in Algeria During the Ottoman(1520–1830)

Foundations and Institutions

عامر بن مزوز¹

جامعة عبد الحميد مهري- قسنطينة2

ameur.benmazouz@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2025 / 04 / 30 تاريخ القبول: 2025 / 05 / 31 تاريخ النشر: 2025/06/03

Abstrac

During the Ottoman period, Education was a prominent feature of the cultural landscape in Algeria, particularly primary education, which constituted the foundational stage of learning. This type of education was closely affiliated with individuals, families, and independent charitable institutions and was widespread across all regions of Algeria. The Ottoman authorities did not obstruct educational efforts, although its role as a governing body remained marginal in education.

Although characterized by traditional and simple curricula and outdated methods, primary education played a pivotal role in preserving Algerian identity within its Arab-Islamic and national framework. This study aims to examine the foundations of primary education in Algeria during the Ottoman era, highlighting the contributions of scholars, families, and various institutions.

Keywords:

Primary Education; Algeria; Quranic Schools; Ottoman Period; Algerian Identity.

الملخص:

شكل التعليم في الجزائر خلال الفترة العثمانية المظهر الأبرز في الحياة الثقافية، خاصة التعليم الأولي منه، والذي مثل المرحلة الابتدائية وارتبط بالأفراد والعائلات وبعض المؤسسات الخيرية الحرة، وقد انتشر هذا النوع من التعليم في جميع مناطق الجزائر، لأن السلطة العثمانية لم تعرقل مسعى التعليم في الجزائر حتى وان بقي دورها هامشيا فيه.

ورغم أن هذا النوع من التعليم (الأولي) كان تقليديا بسيطا في مناهجه، باليا في وسائله إلا أن الفضل الأكبر يعود له في حفظ الشخصية الجزائرية في إطارها العربي الإسلامي وبعدها الوطني، وهو ما سنحاول إبرازه في هذه الورقة البحثية بالوقوف على مرتكزات التعليم الأولي الجزائري في العهد العثماني والوقوف على دور العلماء والأسر ومختلف المؤسسات.

الكلمات المفتاحية: التعليم الأولي ؛ الجزائر؛ الكتاتيب ؛ الفترة العثمانية ؛ الشخصية الجزائرية.

1. مقدمة:

كان التعليم الأولي في الجزائر خلال الفترة العثمانية دينيا إسلاميا في مناهجه وأهدافه يقوم على أساس تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ شيئا من القرآن مما يُمكن الفرد من تأدية واجباته الدينية وكذا تعلم المبادئ الأولية للحساب مما يؤهله للقيام ببعض الحرف أو التجارة، مكتفين بالمرحلة الابتدائية التي تشكل ضرورة دينية ودينية، لذلك لوحظ أن معظم العائلات الجزائرية تصرف أبناءها عن التعليم في تلك المرحلة، والذين يواصلون في مرحلة التعليم الثانوي والعالي فهم القلة من أبناء العائلات الميسورة.

ورغم أن التعليم الأولي كان تقليديا وبسيطا في مناهجه وسائله لكن الفضل الأكبر يعود له في خفض نسبة الأمية وحفظ الشخصية الجزائرية في إطارها العربي الإسلامي وبعدها الوطني، وهو ما سنجاول إبرازه من خلال الإجابة على الإشكالية التالية: ما هي أسس ومركزات التعليم الأولي الجزائري في العهد العثماني، وفيما تمثل دور العلماء والأسر ومختلف المؤسسات في نشره، وما موقف السلطة العثمانية من كل ذلك، والوصول في الأخير إلى نتائجه المرحلية على الأفراد ثم نتائجه النهائية على الأمة الجزائرية.

2. لمحة عن التعليم والواقع الثقافي في الجزائر خلال الفترة العثمانية:

إن حركة التعليم والثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني ما هي إلا استمرارية لما كانت عليه من قبل، فقد سارت سيرتها العادية ولم يحصل فيها تطور إلا فيما يخص الزوايا والرباطات التي ازدادت بشكل لافت بتشجيع من العثمانيين، ذلك أن الأتراك العثمانيون ركزوا جهودهم كلها على حركة الجهاد وإقامة التنظيمات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي كان لها عائدا وفيرا¹، أما التعليم فبقي بسيطا غير ملائم لتطور العصر، حيث كانت المدارس العليا شبه معدومة والمدارس الثانوية قليلة، إذ أن العثمانيين لم يقوموا بإنشاء مؤسسة شبيهة بجامع الزيتونة أو القرويين أو الأزهر بالرغم من وجود إمكانيات بالجزائر خاصة من العلماء المنتشرين بالمساجد الكبرى والذين كان يقصدهم الطلبة من خارج القطر الجزائري للتزود بعلمهم مثل سعيد قدورة وعلي الأنصاري... وغيرهم.²

وقد أكد أحمد المقري هذا الاتجاه بقوله: "أن أوائل عهد الأتراك أصبحت الثقافة رهن فراش الاحتضار ولم نر شيئا نكرا إذا ما اعتقدنا أن الأتراك ليس مثقفون ولا دعاة الثقافة وإنما هم رجال حرب وكفى وقد أتوا إلى الجزائر لطرد الإسبانين و أن معظم القرى والمداشر وبعض المدن الجزائرية كانت إبان حكم الأتراك تتخبط في جهل دامس".³

ونفس الطرح يذهب اليه الدكتور 'توماس شو' عند وصفه للحالة الفكرية والعلمية في رحلته إلى الجزائر بأن الفنون والعلوم التي اشتهرت عند العرب والمسلمين

أهملت في الجزائر خلال تلك الفترة ولم يعد لها أي ذكر رغم أن المسلمين في وقت قريب كانوا رواد وبارعين في الفلسفة والرياضيات والطب...⁴

لكن رغم ذلك لم تخمد الحركة العلمية في هذا العصر ولم يقف دولا العلم والتعليم في أي ناحية من نواحي البلاد، بل كان الكثير من فضلاء الأتراك وأعيانهم ينشطون العلم والمتعلمين بما حبسوه على تلك المشاريع من الأوقاف الغنية ذات الريع الكبير، وحسب أحمد توفيق المدني فإن هذا العصر في الجزائر - كما كان الحال في العالم الإسلامي كله - امتاز بأمرين مهمين:

أولهما: الجمود الفكري بحيث اعتكف العلماء والمتعلمون على العلوم النقلية تاركين العقل جانبا، إذ قال احد علماء ذلك العصر المعدودين، وهو عبد القادر الراشدي الذي له تأليف في علم الاجتهاد والأصول:

خبرا عني المؤول باني كافر بالذي قضته العقول
ما قضته العقول ليس من الدي ن إنما الدين ما حوته النقول

ثانيهما: اشتداد نفوذ المرابطين وانتشار أمر الولاية والصلاح والزهد والتصوف، فأخذ الناس يقبلون على الطرق الصوفية جموعا ، وأخذت هذه الأخيرة تنتظم وتعمر زواياها، وكانت تلك الزوايا تتلقى من المريدين النذور وتنفق قسما كبيرا من ذلك على الطلبة الذي يستقرون بالزاوية لتعلم القرآن والعلوم الدينية فلا يبرحونها حتى تتم معلوماتهم، ويقوم رجال الزاوية بكل ما يلزم أولئك المجاورين ولا تزال إلى يومنا هذا كثير من الزوايا تقوم بهذا العمل.⁵

وقد أكد مبارك الميلي في كتابه "تاريخ الجزائر القديم والحديث" أن الطابع الإسلامي الذي ميز الحياة الثقافية ، هو الذي جعلها تربط ربطا متينا محكما بين مختلف أصناف السكان، وكانت تعمل عملها في صهر السكان حتى يشعروا بانتمائهم لبلد واحد وأمة واحدة، وعندما نتحدث عن الطابع الإسلامي للثقافة فليس المقصود هو المحتوى الديني لهذه الثقافة فقط، ولكن المقصود هو المحتوى الحضاري بما فيه من تعليم وتنظيم ثقافي وقضائي وعلاقات اجتماعية وفكرية، وقد شهد فرنسيون في بداية فترة الاحتلال، بأن الأمية كانت منعقدة تقريبا في الجزائر وأن "سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا، فكل الناس تقريبا يعرفون القراءة والحساب" كما يقول روزي. وهي الفكرة التي أكدها "والسان ايسر هازي" الذي رأى أن نسبة الأمية في الجزائر كانت في 1830 أقل منها في فرنسا، ولعل تلك الشهادة تعتمد على ما شاهده صاحبها في العاصمة ووضوحها فقط أما في الريف فيصعب التسليم بأن التعليم كان منتشرا بنفس هذه النسبة.⁶ و بما أن الثقافة كانت يومها مركزة أساسا على العلوم الدينية ومتروكة لمبادرات شخصية من العلماء وشيوخ الزوايا والمساجد، فقد كانت تلقى في بعض الأحيان عناية من بعض الحكام أمثال الباين صالح باي والباي محمد الكبير بشكل هبات مالية وأوقاف و إكرام للعلماء، وهو الأمر الذي جعل هذا الجانب يعرف فيما بعد بعض التحسن و الإنتعاش.⁷

فالسطة العثمانية في الجزائر وقتئذ فلم تكن لها سياسة واضحة في ميدان الثقافة والتعليم فلم تنشأ هيئات أو مؤسسات خاصة لغرض التعليم بل تركت الأمر للسكان المحليين فغلب عليه الطابع الذاتي الحر الخاضع للموروث التقليدي،

ووجهت السلطة الحاكمة جل جهودها في دعم الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي ومواجهة المخاطر الخارجية التي تهدد البلاد. وعموما فإن المتتبع لمسار التعليم في العهد العثماني يلاحظ أنه كان مقتصرًا على تحفيظ القرآن وتعليم المبادئ الأولية للقراءة والكتابة، وهذا ما يفسر الانتشار الواسع للتعليم الابتدائي الأمر الذي جعل العديد من الباحثين والتربويين يصفونه بالتعليم الأولي.

3. مرتكزات التعليم الأولي الجزائري في العهد العثماني:

ارتكز التعليم في هذه المرحلة على ثلاث أركان:

1.3 المؤدب:

إن المعلم هو عمدة التعليم والمثل الأعلى للمتعلم وهو ناشر العلم بلسانه وكتابه وآرائه وسلوكه، والمعلمون صنفين: معلمو المدينة ومعلمو الأرياف، ولكل منهما درجتان فهو مؤدب للصبيان إذا كان يمارس التعليم الابتدائي للنشء إلى أن يبلغ الطفل سن المراهقة،⁸ أما من يأتي بعده ويواصل التدريس مع من يتجاوز هذه المرحلة إلى غاية العشرين فيطلق عليه اسم المدرس أو المعلم ثم أستاذ إذا كان يدرس مستويا أعلى،⁹ وبما أننا بصدد الحديث عن التعليم الأولي (الابتدائي) نكون أمام ما يسمى المؤدب

ويتم اختيار المؤدب عادة من طرف أهالي الصبيان أو من الواقف ويجب أن يكون من أهل التقى والصلاح والضمير الاجتماعي، ويمكن للأهالي إعفاءه من الوظيفة إذا اشتبه فيه علميا أو أخلاقيا واستبداله بآخر يرون فيه الأهلية لتأديب صبيانهم،

وعلى هذا الأساس فالمؤدب يخضع لرقابة الأولياء والمجتمع عامة وليس لرقابة السلطة الحاكمة.¹⁰

ويختلف مؤدب الريف عن مؤدب المدينة في بعض التفاصيل، فأهل الدوار أو القرية الصغيرة يختارون مؤدب أطفالهم بطريقة مشابهة لأهل المدينة غير أن حاجتهم إلى المؤدب في شؤون أخرى- غير تحفيظ القرآن- أكثر من حاجة أهل المدينة، إذ يستفتونه في شؤون الدين ويستكتبونه العقود ويلجؤون إليه عند الفتن فهو محل تقديرهم وثقتهم، وهو إمامهم في الصلوات، وصلته بالأهالي أقوى وأشد من مؤدب المدينة لأن معيشته تتوقف على رضاهم، وسلوكه الخارجي ومعاملاته معروفة للجميع.¹¹

أما عن أجور المؤدبين فقد كانت أكثر غموضا ولكن المؤكد أن أغلبها تأتي من الأهالي، وقد كانت تقتصر على ما يجيدون به من الهدايا والصدقات كالحلوى والملابس في المناسبات الدينية كشهر رمضان والعديدين وعاشوراء، أما ما يدفعه التلاميذ فلم يحدد مقداره، لكنه يختلف بين مكان لآخر بحسب الحالة الاجتماعية لأولياء التلاميذ.

2.3 التلاميذ:

هم الحلقة الثانية في العملية التعليمية التعليمية، وكانت أعمار المترددين على مؤسسات التعليم الأولي تتراوح ما بين 6 سنوات و14 سنة، وقد أشار الى ذلك 'د/شو' بقوله: "الآباء يرسلون أطفالهم في سن السادسة تقريبا لتعلم القراءة والكتابة ولا يستخدمون الورق للكتابة إنما لوح صغير رفيع ومربع الشكل مبيض قليلا يمحي

بسهولة".¹²، ولم تكن هناك قواعد تضبط حركة التلاميذ أو كيفية التحاقهم بالتعليم إذ أن دور الأسرة ومكانة المؤدب هي التي تحدد ذلك،¹³ والملاحظ أن هذا الأمر يخص الأطفال الذكور، أما الإناث فلا يذهبن إلى المدارس إلا نادرا، ولكن بعض العائلات الميسورة كانت تجلب مؤدبا معروفا بصلاحه وعلمه وورعه لتعليم بناتهم.

وعموما فإن التلميذ النابه يتمكن من ختم القرآن الكريم مرة أو عدة مرات خلال هذه المرحلة مع تعلم القراءة الكتابة وقواعد الدين وأوليات الحساب، وقد يصبح في السنتين الأخيرتين مساعدا للمؤدب في تعليم الأطفال الأصغر منه سنا، والتلميذ في هذه المرحلة عادة يسكن عند أهله ويدرس في الكتاب أو المسجد القريب من منزله، غير أنه يلاحظ أن بعض سكان الريف يرسلون أبناءهم إلى المدينة للتعليم والسكن عند أقارب أو أصدقاء العائلة.¹⁴

وكل أسرة يتقدم أطفالها في الدراسة تعتبر محظوظة، فتعبر عن سعادتها وفرحتها بالاحتفال بالطفل عند ختم القرآن فتقيم مأدبة وتدعوا إليها الأطفال والجيران والأقارب، وكانت من عادات الحضر بمدينة الجزائر أن يُحتفل بهذه المناسبة.

يركب الحافظ على حصان مزين يقوده به زملاؤه ويطفون به شوارع المدينة معلنين نجاحه، ويجتمع أهل والجيران لتحية الطفل وتهنئته مقدمين إليه الهدايا، ومن العادات كذلك أن يلبس الأطفال الملابس الجديدة لأنها مناسبة تعتبر تحقيقا لأمال الأسرة بحصول ابنها عل لقب "طالب"، وبذلك يدخل الطالب مرحلة جديدة من حياته إما بمواصلة دراسته الثانوية، أو يصبح مؤدبا بدوره، أو يدخل ميدان التجارة

مع أهله، لكن في العادة معظم التلاميذ لا يُقدمون على مواصلة تعليمهم إلا القلة منهم من أبناء العائلات الكبيرة.¹⁵

وكان عدد التلاميذ في كل كتاب يتراوح عادة بين العشرين والثلاثين، ويتوقف هذا العدد على كثافة سكان الحي وعلى نجاح المؤدب وسمعته، ولا توجد إحصاءات دقيقة لعدد التلاميذ، فكل الإحصاءات تقريبية، فتلمسان كانت تحوي نحو 2000 تلميذ، وقسنطينة كانت تضم حوالي 1350 تلميذ، أما مدينة الجزائر فكانت تضم حوالي 2000 تلميذ، وهي أرقام تبرز - حسب الدكتور أبو القاسم سعد الله- أن كل الأطفال كان لهم مكان في المرحلة الابتدائية خصوصا وأن الأهالي حريصين على تعليم أطفالهم في هذه المرحلة.¹⁶

لكن حسين الورثيلاني يؤكد في رحلته على كثرة المساجد في مقابل قلة الطلبة ونفس الشيء بالنسبة للمدرسين وهذا يرجع- حسب- لعدم اهتمام الحكام الأتراك بالتعليم واهتمامهم بالأمور الحربية والعسكرية إلا أن الورثيلاني لا ينكر وجود بعض الحكام الذين كانت لهم مبادرة شخصية في تشجيع التعليم وخاصة في النصف الأخير من القرن 18م.¹⁷

3.3. طريقة التدريس والمنهج:

كانت طريقة التعليم الابتدائي تقليدية وبسيطة بساطة التعليم، فالمؤدب كان يجلس عادة في صدر الحجرة مترعا على حصير أو نحوه، مسندا ظهره على الجدار، مرتديا عمامة وجبة وفوقها أحيانا برنس، وبيده عصا طويلة تصل إلى أبعد تلميذ عادة، وكان المؤدب يراقب أدايهم، وعندما يحين وقت الإملاء يملي المؤدب بصوت عال،

وأحيانا يستعمل إشارات الرفض والقبول فيما يطلبه التلاميذ، أما التلاميذ فيكونون حلقة حول المؤدب، وهم يجلسون متربعين قبالة المؤدب وبيد كل واحد منهم لوحة كبيرة أو صغيرة بحسب إمكانيات الطفل وعمره، ويكتب على وجه اللوح آيات القرآن الكريم المراد حفظها، ثم يستعمل الوجه الثاني ويمحي الوجه الأول بعد حفظه واستظهاره أمام المؤدب، وهكذا دواليك إلى يتم القرآن كتابة وحفظا، وكان الطفل خلال حفظه يتحرك في جلسته بجسمه ورأسه أماما وخلفا وهو يكرر الآيات المكتوبة بصوت عال يختلط بأصوات زملائه فلا تسمع آيات القرآن وإنما تسمع مجموعة من الأصوات التي تتمازج فيها آيات القرآن، أما الكتابة على اللوح فكانت تتم بمداد السمق الأسود المستخرج من صوف الضأن المحروق والمصبوب في الدواة، وبالنسبة للأقلام فإن أغلبها مصنوع من القصب.¹⁸

وبالنسبة لتوقيت الدراسة فكان يتم مرتين في اليوم صباحا ومساء في كل فترة حوالي ساعتين، وعادة ما تكون الفترة الصباحية للاستظهار والمحو وكتابة آيات جديدة، أما الفترة المسائية فتكون لحفظ الدرس القديم لاستظهاره في صباح اليوم التالي،¹⁹ وتدوم الدراسة خمسة أيام في الأسبوع²⁰، وأيام العطلة هي عادة الاثنين والجمعة وأيام الأعياد الدينية المعروفة.

أما التأديب فكان يتم بعقوبة التأنيب بالكلام وهو أخف العقوبات، أما أقساها فكان يتم بتسليط الفلاحة التي لا يلجأ إليها المؤدب إلا في الحالات النادرة حين ارتكاب التلميذ خطأ جسيما كالسرقة ونحوها، أما باقي العقوبات فكانت الضرب بالعصا على أصابع اليد وعلى الرأس إلا أنه أحيانا يكون الضرب مبرحا أو عشوائيا يحدث

تشوهات للتلميذ، لكن أغلب الآباء كانوا راضين بتصرفات المؤدب لأنه موضع ثقتهم.²¹

وكان التعليم يعتمد أساسا على ملكة الحفظ وقوة الذاكرة ، وحسن السمع ، وإتقان الخط ، والامتنال للأوامر لمن هم أعلى مرتبة وأكبر سنا، ويتعلم الطفل خلال هذه المرحلة مبادئ القراءة والكتابة والحساب وأركان الإسلام وشعائر الدين ويحفظ القرآن جزئه أو كله، وإذا كان الفقراء يكتفون بهذا القدر من التعليم فإن الأغنياء عادة يواصلون تعلمهم، وبذلك يدخلون المرحلة الثانوية مثلما أشرنا سابقا.

4. مؤسساته:

تمثلت مراكز التعليم الأولي في الجزائر خلال العهد العثماني بشكل أساسي في المؤسسات الدينية والثقافية مثل الكتاتيب، المساجد والزوايا ، والتي كانت مهمتها الأساسية التعليم

1.4 الكتاتيب:

يعد الكتاب من المؤسسات التعليمية التربوية الأولى التي كانت أساس التعليم العربي الإسلامي التقليدي بالجزائر، فهو المكان الذي يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والمعرفة العامة، وقد كثر هذا النوع من المدارس وعرف انتشارا واسعا في كل المناطق، وكان الكتاب (جمع كتاتيب) هو الأساس للتعليم الابتدائي خلال الفترة العثمانية، ويطلق عليه في بعض المدن كالعاصمة اسم المسجد وفي مدن أخرى اسم الجامع وفي بعض الأرياف اسم الشريعة، وعموما فالكتاب

مخصص عادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال، وكان التعليم به موجها لحماية الدين الإسلامي وتعليم اللغة العربية²² وكانت هذه المؤسسة منتشرة في كامل أنحاء البلاد، الأمر الذي أدهش الفرنسيين عند احتلالهم الجزائر، فقد كتب الجنرال دوماس (DAUMAS) في تقرير له: " أن التعليم الابتدائي في الجزائر كان منتشرا...فاتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاثة أظهرت أن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة"، كما علقته عن ذلك الباحثة إيفون توران (Yvonne turin) بقولها: "إن لم يكن كل الأطفال قد تعلموا القراءة والكتابة فإنهم جميعا قد مروا بالمدرسة الابتدائية (الكتاب) وكانوا يستطيعون قراءة القرآن في صلواتهم"²³

والكتاب عبارة عن غرفة في منزل، أو حجرة بجوار المسجد أو بعيدة عنه، وقد خصص لتعليم القرآن والقراءة والكتابة وعادة لا تخلط مع ذلك أية علوم أخرى، ويضم الكتاب عادة ما بين 20 إلى 30 تلميذ، وقد انتشرت انتشارا واسعا في الجزائر خلال الفترة العثمانية، فلا يكاد يخلو منها حي من الأحياء سواء في المدن أو القرى أو الأرياف.²⁴

وهكذا ظل الكتاب خلال الفترة العثمانية مؤسسة تعليمية محافظا على اللغة العربية والثقافة الجزائرية الإسلامية واستطاع القيام بدور فعال في نشر العلم ومحاربة الأمية في ظل غياب هيئات رسمية للتعليم في الجزائر.

2.4 المساجد:

يعتبر المسجد روح وجوهر العقيدة الإسلامية فهو من معالم الحضارة الإسلامية إذ تتركز وظيفته الأساسية في أداة الصلاة وحلقات الدروس اليومية وله وظائف أخرى فهو يمثل مؤسسة تعليمية مهمة تلقى فيه الدروس من الفقهاء والمفتيين،²⁵ كما يلعب في الكثير من الأحيان دور المدرسة الابتدائية في ظل غياب الكتاب أو الزاوية .

وكثيرا ما كان يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية كون بعض المساجد والجوامع تابعة لزاوية معينة في حين أن هناك أيضا زوايا تابعة لمساجد وجوامع معينة، بل يتعدى هذا إلى الوظيفة أيضا، فالمساجد هي أماكن للعبادة ونشر العلم، فكان أهل القرية أو المدينة يشتركون جميعا في بناء المساجد والوظائف فيها لأن الدولة لم تكن هي المسؤولة عن بناء المساجد وإذا بنى أحد الباشوات مسجدا فإنه يبينه من ماله الخاص²⁶ وعلى قول 'بفايفر سيمون': "أن المساجد كانت تتميز عن باقي البنايات الأخرى"²⁷ إذ يختلف وضع المسجد عن الجامع فالجامع هو الذي تؤدي فيه صلاة الجمعة والعيدين وكثيرا ما يسمى جامع الخطبة وبعضها يسمى بالجامع الكبير أو الجامع الأعظم²⁸

وعادة ما تنسب المساجد إلى مؤسسيها من السياسيين والتجار والعسكريين ، وإلى الأحياء الواقعة بها كجامع باب الجزيرة وجامع سوق الغزل بقسنطينة أو إلى صنعة أو حرفة أهل الحي كجامع الخياطين وجامع حي الرمان بتلمسان، ويعبر الدكتور أبو القاسم سعد الله عن دور المساجد بقوله: "إنها ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة إذ حوله تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب كما أنه الرابطة بين أهل القرية والمدينة والحي

لأن الكل يشترك في بنائه"²⁹ وبما أن المساجد كانت بمثابة الرابطة بين الأهالي في الريف والمدينة، فقد كثرت العناية بها فلا نكاد نجد قرية أو حيا في المدينة دون مسجد.

لكن رغم كثرة المساجد إلا الكثير ممن تنقلوا وكتبوا في تلك الفترة تأسفوا عن الوضعية التي آلت إليها بعض المساجد، فنجد الورثيلاني يصف المسجد الكبير في بسكرة بأنه خاليا من الطلبة والمفتين والدارسين، رغم سعته وبنائه الجميل، ومن جهة ثانية ينتقد الورثيلاني سكان بسكرة ويصفهم بالجهل والضعف لتوفر المساجد وخلوها من الطلبة والمفتين³⁰

وفي مقام آخر بيّن الورثيلاني إعجابه ببجاية وأهلها لكثرة علمائها واهتمام أهلها بالعلم فيذكر الجامع الأعظم ببجاية الذي وجدوا فيه 90 مفتيا، فاعتبر ببجاية دار علم وبركة لأنها مزدهرة بالفكر وأن أهلها يهتمون بالعلم إذ وجد فيها 500 شابة يحفظن المدونة وأما اللواتي يحفظن ابن الحاجب لم يعرف عددهن لكثرتهم، فبجاية كاد زينها وجمالها يضئ من كثرة علم أهلها وقوة أحوالهم وأنوار العلم بحسب تعبير الورثيلاني.³¹

أما بالنسبة لمساجد بالجزائر فيوجد الجامع الكبير وهو أقدمهم ويسمى أيضا الجامع الأعظم، وتمثلت مهمته في الوظائف الدينية وخدمة المسلمين وتداول عليه أئمة ومفتون، ويعتبر من أقدم المباني الدينية وأكثرها أوقافا، كان أشهر من تولى فيه الإفتاء عائلة قدورة، وهو مسجد مالكي، لقد كانت المساجد تؤدي دورا كبيرا في التعليم ولما انتشرت الزوايا وتطورت حيث أصبحت هذه الأخيرة تلعب دورا مهما خاصة أن أولياءها كانوا لهم سلطة على الأهالي³²

3.4. الزوايا:

اشتهرت الجزائر بالزوايا حيث كانت موجودة فيها وبكثرة ، وقد اعتبرت الممثل الأول للثقافة في الريف أما في المدن فكانت وظيفتها التعليم إضافة إلى أنها مسكن للطلبة الوافدين على العواصم ويتمثل دور الزاوية في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس الفقهيات وقواعد النحو والصرف وقانون البلاغة والحديث³³

وقد ذكر الورثيلاني العديد من الزوايا ومن بينها زاوية سيدي خالد ببسكرة، زاوية سيدي الأخضر، سيدي علي البكاي، سيدي عقبة، سيدي عبد الرحمان الثعالبي، ويتبين من حديث الورثيلاني أن المجتمع الجزائري متعلق جدا بالزوايا حتى أنه ما إن دخل قرية إلا زار زاويتها وتبرك بولمها.³⁴

لقد كانت الزوايا مركز إشعاع تعليمي بالنسبة للطلبة وجانب اجتماعي بالنسبة للشيخ، حيث أنهم كانوا يداوون المرضى بطرق بدائية ولقد كانت الزاوية في الريف تلعب دورا كبيرا أكثر من المدن حيث أنها تعتبر مخزون المعلومات والوثائق خاصة أن التدوين موجود في تلك الفترة، وكانت الزوايا مكانا للتعليم والتدريس، فقد كان السكان يقدسون الأولياء الصالحين ، وكثيرا ما يذهبون لزيارتهم والتبرك بهم.

كما لعبت الزوايا دورا هاما في نشر الإسلام وحفظ لغة القرآن، إذ كانت تقوم بوظائف تعليمية واجتماعية مثل التربية والإيواء لكل فئات المجتمع دون استثناء وملاذا آمنا وقت الأزمات،³⁵ وقد انتشرت في الجزائر خلال العهد العثماني بشكل كبير بالمدن والأرياف، وعاش فيها معظم الشيخ ينشرون عقائدهم ويعلمون أتباعهم الأفكار ويلقنون المريدن والعامة مبادئ الدين أيضا وإذا مات دفن في تلك الزاوية

ويصبح بذلك ضريحه علامة على الزاوية، ووجود الزاوية يدل في الغالب على وجود ضريح هناك.³⁶

وكانت كل مدينة صغيرة أو كبيرة محروسة بولي من الأولياء يحميها من العين والغارات والنكبات الطبيعية ومن الطامعين فمدينة الجزائر كانت تعج بالزاويا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء الصالحين كزاوية وضريح "عبد الرحمان الثعالبي" وزاوية "عبد الرحمن الجيلاني" وسيدي "الجودي" وغيرها من الزاويا.³⁷

أما في مدينة قسنطينة فقد كانت هناك عدة زوايا مثل زاوية "ابن نعمون" المعروفة باسم الزاوية التيجانية وزاوية النجارين المعروفة بزاوية حنصالة وزاوية "الفكون" المعروفة بالزاوية التيجانية الفرقانية، كما اشتهرت مدينة تلمسان هي الأخرى بزوايا وأضرحة منها زاوية "سيدي الطيب" و"سيدي بومدين" و"أحمد العماري"،³⁸

أما منطقة زواوة وبجاية فقد كانتا لهما الحظ الوافر من الزوايا بالجزائر أهمها زاوية "سيدي التواتي"³⁹ وزاوية الأزهرى بأيت إسماعيل وزاوية "ابن علي الشريف" بأقبو.⁴⁰ إذ ثبت أن عدد الزوايا والأضرحة قد فاق عدد المساجد والمدارس⁴¹ فتلمسان كان بها أكثر من 30 زاوية وفي قسنطينة 13 زاوية أما في منطقة زواوة فقد تجاوزت 40 زاوية ونفس الأمر ببجاية التي كان بها ما بين 36 و40 زاوية أما في الجزائر فقد أحصي ما بين 32 ضريحا و10 زوايا⁴² وعادة ماتحتوي الزاوية على مصلى وغرفة قصرت على تلاوة القرآن ومدرسة لتحفيظه كما تضم غرف ومرافد لإيواء الطلبة وضيوف الزاوية والحجاج وضريح الولي الصالح مؤسس الزاوية.

أما الرباطات فقد عرفها "محمد التلمساني" على أنها الموضع الذي يلتزم فيها العبادة عند المتصوفة⁴³ ومن مؤسساتهم القديمة التي عرفها المغرب الإسلامي⁴⁴ وكانت تتشابه مع الزوايا في بعض الوجوه كونها كانت في خدمة الدين والمجتمع وقد أسست من أجل خدمة الجهاد والدفاع عن حدود الإسلام مع أداء مهمة العلم أيضا فكان فيها الطلبة علماء وجنود في نفس الوقت ويمكن القول أن الرباطات كانت قلاعا من جهة وزوايا من جهة متنقلة من جهة أخرى⁴⁵.

وعموما فإن معظم الزوايا كانت تشرف على تسييرها الطرق الصوفية، وكانت تضمن للطلبة نظاما داخليا يعفيهم من تكاليف ونفقات المأوى والملبس، وقد لعبت الزوايا دورا أساسيا في نشر الثقافة في الأرياف، فأوجدت بذلك نوعا من التوازن بين الريف والمدينة، وحالت دون تطور الثقافة في المدن دون الريف، لكن ذلك لا يمنع أن يكون التعليم في الأرياف أقل نسبة منه في المدن.⁴⁶

وإجمالا هناك اختلاف بين المؤرخين الذي تحدثوا على الحياة الثقافية في العهد العثماني في تحديد عدد المدارس الموجودة آنذاك وهنا اقصد الابتدائية بصفة خاصة إذ لا يوجد خط فاصل يميز بين الكتاب والمسجد والزاوية فكلها تقدم تعليما دينيا للأطفال وبهذا قيسست كثرة المدارس التعليمية وقتئذ المتمثلة في الكتاتيب والزوايا والمساجد ولعبت دورا كبيرا في حفظ الشخصية الجزائرية ومحاربة الأمية والتي كانت منتشرة في كل المناطق الجزائرية الحضرية والريفية.⁴⁷

وبفضل تلك الزوايا في ذلك العهد وبفضل الكتاتيب القرآنية التي انتشرت في المدن والقرى انتشار لا نظير له وبفضل الدروس التي يقوم بها علماء أعلام في أغلب

المساجد بكل المدن الجزائرية، انتشر العلم بين الطبقات الراقية وقلت الأمية بين الطبقات الوسطى والعاملة، وكانت الحياة يومئذ تساعد على هذا الإقبال على العلم، لأن الحياة كانت بسيطة هينة، والناس يملكون أرضهم وديارهم، فلم تكن هناك من طبقات كبيرة معدمة تهمل حياتها المعنوية في سبيل القوت...لذلك نبغ في الجزائر ثلة من العلماء ف ذلك العصر، نالوا في الأوساط الأهلية والحكومية التقدير والإفادة.⁴⁸

5. الخاتمة:

أجمعت المصادر التاريخية التي تناولت التعليم في العهد العثماني عن كثرة المدارس الابتدائية التي تمثلت أساسا في الكتاتيب والزوايا والمساجد التي كانت منتشرة في كل المناطق الجزائرية الريفية والحضرية، والتي شكلت التعليم الأولي وقتئذ ولعبت دورا كبيرا في محو الأمية وحفظ الشخصية الجزائرية في إطارها العربي الإسلامي باعتمادها على نظام التعليم الإسلامي، فقد كان المجتمع الجزائري مجتمعا محافظا و متمسكا بعوائده الدينية والقومية يرى في تعليم أبنائه القرآن الكريم واللغة العربية ومبادئ الحساب واجبا مقدسا تمليه الضرورة الدينية .

ورغم أن التعليم الأولي خلال الفترة العثمانية كان تقليديا في مناهجه، باليا في وسائله يركز على تحفيظ النشاء القرآن الكريم أو جزء منه وتعليمهم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، وكان خاليا من كل أنواع التفكير وروح الإبداع، إلا أنه يمكننا القول أن الفضل الأكبر يعود له في القضاء على الأمية خلال تلك الحقبة وحفظ الشخصية الجزائرية في إطارها العربي الإسلامي وبعدها الوطني.

6. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان 1998
2. أحمد بوزيبة، المراكز الثقافية في الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، رسالة ماجستير، جامع الجزائر، 2010-2011
3. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر 1932
4. آسيا بلحسين رحوي، "وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي"، مجلة دراسات نفسية وتربوية، ع7، ديسمبر 2011
5. بفايفر سيمون: مذكرات او لمحة تاريخية عن الجزائر، تق و تع: ابو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974
6. رشيدة شدرى معمور، "المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518-1830"، مجلة معارف، ع20، جوان 2016
7. سعاد بولجويجة: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر-1، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة 9 ماي 1945، قالمة، الجزائر، 2019-2020
8. سعاد قوبال، المساجد الأثرية لمدينة الجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2006
9. سهام دحماني: المرأة والتصوف في المغرب الإسلامي من القرن 6هـ الى 9هـ/12م-15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإجتماعي للمغرب في العصر الوسيط، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2006-2007
10. شاطو محمد، نظرة المصادر الجزائرية و الأجنبية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، (د.ط)، دار كوكب العلوم للنشر و التوزيع و الطباعة، الجزائر، 2018م
11. صبيحة بخوش، "وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني"، مجلة حوليات، مخبر التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر
12. صليحة بردي، "الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني"، مجلة الذاكرة، ع11، جوان 2018

13. عثمان سعدي ، الجزائر في التاريخ ، (د.ط.)، دار الأمة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013
14. محفوظ رموم: الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519-
- 1830) دراسة تاريخية أنثروبولوجية، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2012، ص 100-7.
15. محمد ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، د.تح: ماريا نيسوس بيفيرا، حق: محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981
16. محمد بن عبد الكريم المقرئ ، نفح الطيب ، (د.ط) ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت)
17. مصطفى بن حموش ، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس، دار الأمة ، 2007
18. مؤيد محمود حمد المشهداني، أوضاع الجزائر في خلال الحكم العثماني 1518-1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج 5، ع 16
19. يحيى بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر ، ج 2 ، (د.ط) . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994
20. الحسين بن محمد الورثيلاني ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية للشيخ العالم الرباني الشريف النوراني ، مطبعة بدير فونتانا الشرقية ، الجزائر 1908م/1326هـ
21. مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، تقديم وتصحيح محمد المليي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1964
22. Ermengarda Greville- Nugentm, **A Land of Mosques and Marabouts**, LONDON: CHAPMAN & HALL, ld, 1894
23. Thomas shaw, **voyage dans la régence d'alger** , Paris 1830

7. الهوامش:

1- يحيى بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر ، ج2 ، (د.ط) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ص 310.

2- عثمان سعيدي ، الجزائر في التاريخ ، (د.ط)، دار الأمة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013 م، ص423.

3- محمد بن عبد الكريم المقرئ ، نفح الطيب ، (د.ط) ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت)، ص40.

4 - Thomas shaw, **voyage dans la régence d'alger** , Paris 1830, p77

5- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر ، المطبعة العربية، الجزائر 1932، ص ص89-90

6- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1964، ص 317

7- شاطو محمد ، نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية إلى السلطة العثمانية في الجزائر ، (د.ط) ، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة ، الجزائر، 2018 م ، ص 68 .

8- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان 1998، ص ص321-322

9- صبيحة بخوش، "وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني"، مجلة حوليات، مخبر التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر، ص144

10- نفسه

11- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص322-323

12- Thomas shaw, **op.cit**, p78

13- صبيحة بخوش، المرجع السابق، ص144

14- سعد الله، المرجع السابق، ص332

15- نفسه

- 16- نفسه، ص 333
- 17- حسين بن محمد الورثياني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيانية للشيخ العالم الرباني الشريف النوراني، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية، الجزائر 1908 م/1326 هـ، ص 121
- 18 - سعد الله، المرجع السابق، ص 339
- 19- نفسه ص 340
- 20- أحمد بوزيبة، المراكز الثقافية في الجزائر والمغرب في القرن 10 هـ/16 م، رسالة ماجستير، جامع الجزائر، 2010-2011، ص 47
- 21- سعد الله، المرجع نفسه، ص 341
- 22- آسيا بلحسين رحوي، "وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي"، مجلة دراسات نفسية وتربوية، ع 7، ديسمبر 2011، ص 73
- 23- رشيدة شكري معمر، "المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518-1830"، مجلة معارف، ع 20، جوان 2016، ص 92
- 24- مؤيد محمود حمد المشهداني، "أوضاع الجزائر في خلال الحكم العثماني 1518-1830"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج 5، ع 16، ص 435
- 25 - سعاد قوبال، المساجد الأثرية لمدينة الجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 16
- 26- نفسه: ص 245-247.
- 27- سيمون بفايفر: مذكرات أولمحة تاريخية عن الجزائر، تق و تع: ابو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 9.
- 28- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 266
- 29- نفسه، ص ص 245-246
- 30- الحسين الورثياني، المصدر السابق، ص 88.
- 31- نفسه، ص 23.
- 32- مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس، دار الأمة، 2007 ص 49.
- 33- أبو يعلي الزواوي، تاريخ زواوة، تعليق يوراوي اسماعيل، 2008، ص 55.
- 34- حسين الورثياني، المصدر السابق، ص 78-79.

- 35- سعاد بولجويجة، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر-1-، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 9 ماي 1945، قالمة، الجزائر، 2019-2020، ص 58-59.
- 36- محمد هوارى، المرجع السابق، ص 60.
- 37- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 263.
- 38- محمد الهوارى، المرجع السابق، ص 61.
- 39- محفوظ رموم، الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830) دراسة تاريخية أنثروبولوجية، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2012، ص 100.
- 40- محمد الهوارى، المرجع نفسه، ص 61..
- 41- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 266.
- 42- محفوظ رموم، المرجع نفسه، ص 101.
- 43- محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، د. تج: ماريا نيسوس بيفيرا، تق. محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 411.
- 44- سهام دحماني: المرأة والتصوف في المغرب الإسلامي من القرن 6هـ الى 9هـ/ 12م-15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاجتماعي للمغرب في العصر الوسيط، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2006-2007، ص 37.
- 45- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 272.
- 46- المليي، المرجع السابق، ص 317.
- 47- صليحة بردي، "الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني"، مجلة الذاكرة، ع 11، جوان 2018، ص 131.
- 48- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 89-90. ينظر كذلك:
- Ermengarda Greville- Nugentm, **A Land of Mosques and Marabouts**, LONDON: CHAPMAN & HALL, ld, 1894.p79

دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية